ثقافة

ديفيد هوميل: «أليس مونرو، هذه الكندية التي تحبذ التخفي، تكتب عن النساء ومن أجل النساء، إلا أنها لا تحمل الرجال كل الشرور».

سينثيا أوزيك: «اشتهرت بدراساتها للمكان وبأناقة أسلوبها الطبيعي وبقدرتها على كشف العواطف المتغيرة للشخصيات الذين يعيشون حياة قاسية».

كيلدار دوبس: «كل القصص تروي حياة أهل أونتاريو بنبرة لا يخطئها السمع ولا يعوزها التشدد، وهيا تتمسك بأخلاق ماكرة وبرغبة في الحياة وذلك في إطار غامض».

أليس مونرو تدخل محفل نوبل وترد الاعتبار لفن القصة القصيرة

● شخصيات مونرو تبدو وكأننا التقينا بها مصادفة في السوق ● يقارنها النقاد بالقاص الروسي تشيكوف

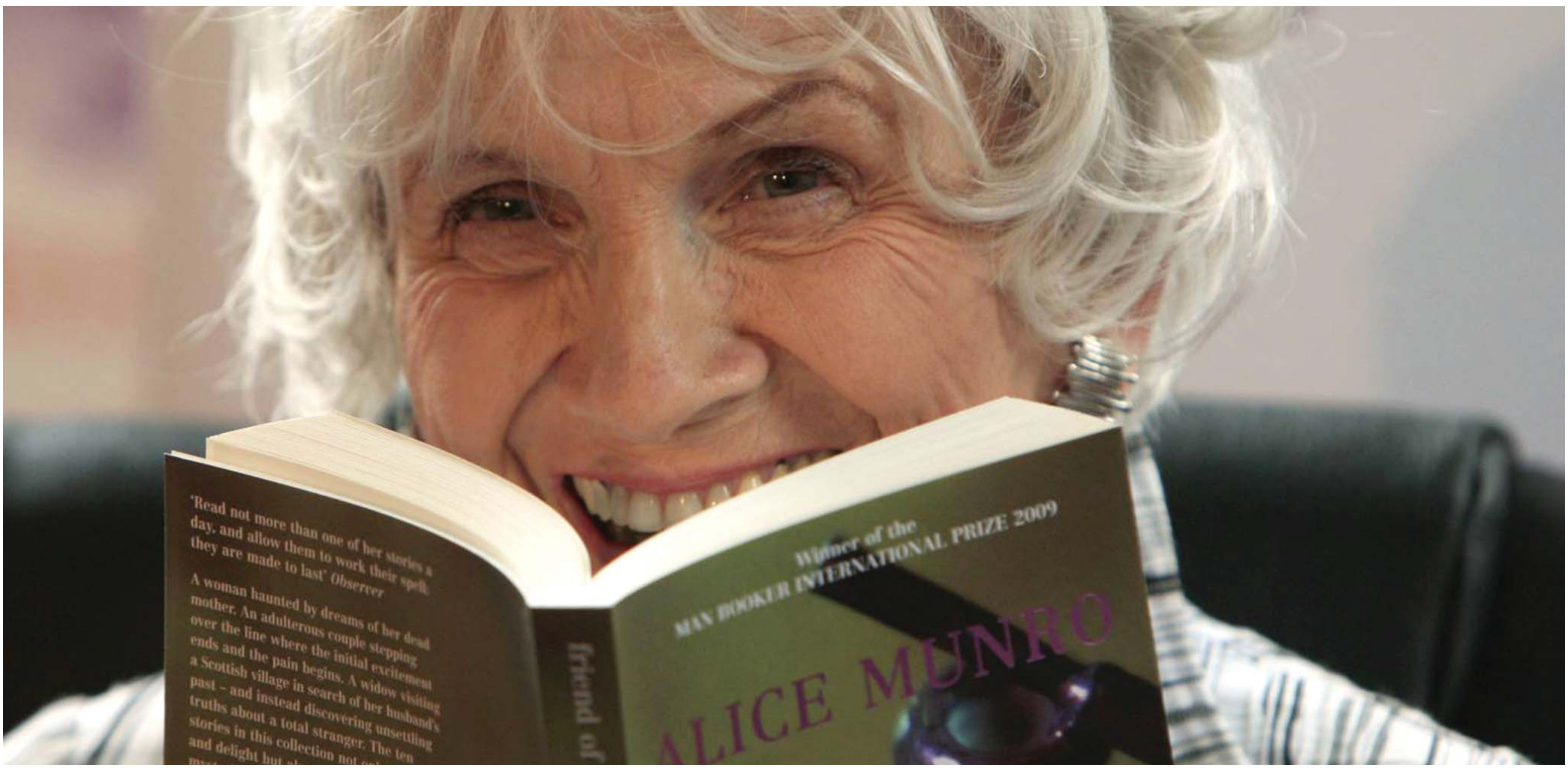

ما يجعل أليس مونرو أيقونة للقصة القصيرة هو ما ينطوي عليه أدبها من واقعية تحتمل الصدق أو الكذب

أخيراً كاتبة قصصية لم تنزلق إلى "غواية الرواية" تقتنص نوبل. تماماً مثلما ارتفعت الحواجب دهشةً عام 2009 حين نالت جائزة البوكر، لم يتوقع الكثيرون حقاً فوز الكاتبة الكندية أليس مونرو (1931) هذا العام بأكبر جائزة أدبية على الإطلاق. فقد ظل اسمها يزيِّن القائمة العام تلو الآخر باعتبارها سيدة القصة المعاصرة بلا منازع دون اعتقاد حقيقي بأنها ستنالها يوماً.

هالة صلاح الدين

❑ أخال أن ثمة نخبوية أدبية تستتر في عالم الأدب ذاته، تلك الرانية إلى القصة القصيرة باعتبارها سلالم يصعد عليها المبدع وعيناه ترتقيان إلى الرواية أو عملية إحماء تفضي إلى نوع أدبي زعموا أنه "أرقى"، ويدعى "الرواية".

لم تخضع صاحبة إثنتيّ عشرة مجموعة قصصية لهذا الابتزاز الأدبي لما يربو على خمسين عاماً، ولم تكف عن استهجان نقاد استحسنوا قصصها بوصفها "تضمر سلطة الروايات العاطفية". بل إنها حين أصدرت بالفعل رواية "حيوات فتيات ونساء" (1971) بنَتها بنية أشبه بالمجموعة القصصية المتصلة! وظلت تجلب حكمة مشوبة بعين اجتماعية نافذة لكل قصة خطتها، فكل حدوتة هي عالم بأكمله، ولا حد لطبقات من الحكي قد تدمجها – بسلاسة غير معهودة ودون اضطراب في الذاكرة – في حبكة مقتصدة دقيقة السرد.

وجدت في مستهل مشوارها الكتابة ملاذاً من حياة عائلية شقية. وحينما فازت لأول مرة بجائزة مرموقة وصفها أحد نقاد جريدة ذا جارديان بأنها "ربة منزل خجول"، ومنذ حينها ارتقت بخطوات واثقة محسوبة ليقارنها النقاد بالقاص الروسي تشيكوف وتحصل على عدد من الجوائز لا يتسع له هذا المقال.

وشأنها شأن كُتاب الجنوب الأميركي من أمثال جيمز لي بيرك وتيم جوترو ترتكن العديد من قصصها على دعامة إقليمية لا تشيح إلى أية مناطق غرائبية، إذ يمثل أسلوبها أكثر ما يمثل أسلوباً قوطياً خليقاً ببلدات جنوب أونتاريو بكل ما تحويه من مشاحنات طبقية ونزعات استعلاء أخلاقية. يتخلل أدبها راو عليم يسعى إلى إسباغ المغزى على حياة ريفية لا تُقدِّم الكثير وشخصيات نسائية تميل إلى التعقيد وإن لم تقع في فخ النسوية الجوفاء أو الرقي المصطنع.

الحق أنها كثيراً ما تقتدي برواد القصة الأوائل وتقص قصصاً لا تحتل فيها الحبكة الصدارة، فأقل القليل قد يَحدث في الظاهر، ليتبقى حضور لا يستهان به للقارئ حتى يسبر ويطلق خياله ويملأ الثغرات ويعتنق في النهاية صلة – مبهمة بالضرورة – بينه وبين الشخصيات. وهكذا بمقدور قصة واحدة أن "تَشغل كوناً" مثلما عبَّرت مونرو يوماً. إنها تلك اللحظة الموهمة بالكشف الوجودي والتنوير المباغت التي تجسد من قصصها عالماً فسيح الأركان، ومع ذلك لو حاول ناقد حذف كلمة قد يظنها شاردة، سوف تختل الدراما، فلا فسحة للهدر في هذا الأدب.

لم تخلف مونرو ركناً في التجربة الإنسانية إلا وطرقته، ها هو الحب والعمل وفشل كلاهما: ورطة الأنثى حين ترتطم بحقيقة البلوغ وتوقها إلى الطموح، في مجموعتها القصصية "سعادة مفرطة" (2009) تقاسم الكاتبة الأميركية لويز إردريك هوسها بالزمن وعجزنا عن كبحه أو رد تبعاته؛ تحاذي آيات الفانتازيا النادرة في أدبها المعتاد المألوف، ويتشابك الإثنان على نحو يستدعي الحياة استدعاء عفوياً.

الحق أن ما يجعل مونرو أيقونة للقصة القصيرة هو ما ينطوي عليه أدبها من واقعية تحتمل الصدق أو الكذب. لن تجد بين سطورها محاكاة مبتذلة للواقع. وللمفارقة يتوازى المألوف والاستثنائي في مجموعتها القصصية "الكراهية، الصداقة، الغزل، الحب، الزواج" (2001) كي تسدد عيناً كاشفة إلى ظاهرة "واقعية الابتذال"، واقعية تنقلب في أدبها سحراً وأحياناً فانتازيا مبطنة.

وهكذا يرتاب القارئ في الواقعية ذاتها، لا بأسلوب يتعمد تذكير القارئ بأن ما يطالعه ما هو إلا خيالا محضا، وإنما من خلال استغلال مونرو "لأثر الواقعية" خير استغلال ثم تقويضه عبر طرح عدة احتمالات بديلة في الإطار الأدبي ذاته. وعليه تسبغ هذه الإستراتيجية المواربة وهذا المستوى الغائب للمعنى خطاباً يومئ دون كلل إلى فجوة بين الإبداع والواقع الممثل له.

تنزع مونرو في الأغلب إلى سرد يتمعج في طبقات ويتجول زمنياً إلى الماضي وإلى المستقبل، ومع ذلك لا يستهويها الصخب الأدبي أو الأساليب الشبيهة بالمتاهة. تستحضر في مجموعتها القصصية "المشهد من كاسل روك" (2006) تاريخاً عائلياً لا يَسلم من شطحات الخيال، ويتمحور حول موضوع أثير إلى درجة البدائية – انهماك المراهَقة بالوعي بالذات – ومن هذه النقطة المحصورة حتماً في إطار اجتماعي ضيق، ترسم مونرو كوميديا إنسانية يتردد صداها عميقاً ليشمل ما يتخلل الحب والحياة والموت من عجب ونضارة.

ولّت في مجموعتها القصصية "الهاربة" (2004) وجهها شطر كادحين في منتصف العمر، ونساء يكابدن الوحدة، وشيوخ يتطلعون بلهفة تارة وندم تارة إلى المنصرم.

تحسر المجموعة النقاب عن غموض يلف حياتنا: "ساخر وجاد في الوقت نفسه"، "شعارات الوَرَع والرعب والتعصب المتقد، معرفة متفردة لا جدوى منها، أطنان من الصراخ والغضب المغلف بالسعادة". وإن لا تفارقها الحدة حين تصور صراعات الطبقات الاجتماعية ولهاث القروي من أجل الفرار منها.

تبلغ في قصتها "الدب يصعد الجبل" (1999)، والتي تحولت إلى فيلم سينمائي تحت عنوان "بعيداً عنها" (2006)، أوج رقتها الأدبية. ترنو إلى ما يفرضه الزواج من التزامات وما يرافقه من ألم حين ترحل زوجة روحياً وتقع فريسة مرض الزهايمر، بل وتقع – عجوزاً تقهقرت إلى سن طفلة – في حب مريض آخر بالزهايمر، تحت سمع وبصر زوج بالكاد تتذكره. قد يظن القارئ العربي أن حال القصة في العالم الغربي مختلف حتماً عنه في العالم العربي، فمنذ أعلن الناقد المصري جابر عصفور متجنياً أنه "عصر الرواية" همدت بشكل أو بآخر همم القاصين العرب متكلسة عند عتبة القص. المثير أن قاصي العالم الغربي يخضعون للواقع المشين نفسه. ولا ينقطع النقاد عن ترديد أن القصص ليست روايات قصيرة أو تمهيداً لها، وإنما نوع أدبي مستقل بذاته.

وفي وقت ما نسَت ثقافتنا الأدبية هذا الفارق وسلَّمت في إهمال أكاليل الغار إلى الروايات. وهذا الفوز المستحَق تذكرة بما يمْكن أن تأتي به القصة القصيرة دون غيرها.

ها هي "قديسة القص" وفقاً لتعبير الكاتبة الكندية مارجريت أتوود تفرض أستاذيتها على مناهج ثقافية ولغوية تسود منطقة بعينها. في عالم مونرو تتألق شخصيات لا تعكس أية حنكة، يتبدون أمام أعيننا وكأننا التقينا بهم صدفة في السوق، إنهم كل فرد منا، يأخذون بأسباب حياة محدودة مهمشة ليمثلوا البشرية بأسرها بلغة تتراوح بين المكبوح والصريح، مسهبة حين تقرر مونرو أن تقود القارئ بلا حول ولا قوة إلى كثافة أخلاقية حرية بروايات القرن التاسع عشر الإنكليزية، ومقتضبة حين تتوخى السرية وتفرض بالاشتباك، ومن المغري هنا أن أستعير تعبير الروائية الأميركية جين سمايلي حين أعلنت أن كاتباً أياً كان "سوف يحدق ببلاهة حين يقرأ أدب مونرو".

الكاتبة التي انسحبت من المشهد الأدبي دون ضجة

❑ عندما أعلنت اعتزال الكتابة في وقت سابق هذا العام، لم تتوقع هذه الكاتبة الكندية أن المجد سينهمر عليها لمكافأة سحر القص بين أناملها وخيالها. لتكون المرأة الثالثة عشرة التي تنال الجائزة منذ عام 1901.

هكذا نزلت على الكاتبة الكندية أليس مونرو أفخم الجوائز العالمية في الآداب لكونها "أفضل من كتب القصة القصيرة في العصر الحديث" وفق إعلان الأكاديمية الملكية السويدية.

ووصفت أكاديمية نوبل قصها بالدقيق والذي يتميز بالوضوح والواقعية النفسية.

ومونرو هي أول كاتبة وكاتب كندي يفوز بهذه الجائزة منذ أن نالها سول بيلو، عام 1976.

كانت تقول بالأمس وهي تعيد مسار حياتها بعيدا عن قلق الكتابة وسحرها "ما أريده شيء آخر، طبقة مختلفة من الكلام والفكر ونوع من الضوء على الجدران، ضوء برائحة، ألم وهم، نوع من العقد المشع مع الأبدية".

مونرو المولودة عام 1931 بولاية أونتاريو، لم تفقد تقاطيع وجهها الجمال مع كل تلك السنين، بدأت بكتابة القصص في سن المراهقة، غير أنها نشرت كتابها الأول عام 1968، بعنوان "رقص الظلال السعيدة"، والذي لاقى استحساناً كبيراً في كندا.

ومن قصصها أيضا، "من تظن نفسك" (1978)، و"أقمار المشتري" (1982)، و"الهروب" (2004)، وآخرها "الحياة العزيزة" (2012) التي تحولت إلى فيلم سينمائي مثله جولي كريستي وجوردون بينسنت، قبل أن تعلن اعتزالها الكتابة مثلها مثل الأميركي فيليب روث الذي كان على قائمة المرشحين للمجد النوبلي. كانت أليس مونرو تدرس اللغة الإنكليزية في جامعة ويسترن أونتاريو عندما نشرت مجموعتها "رقص الظلال السعيدة" التي نالت أهم الجوائز الأدبية في بلدها. لكنها لم تقف عند هذه الجائزة المحلية، عندما نالت في العام 2009، جائزة مان بوكر الدولية على مجمل أعمالها القصصية. وفي عام 1980، كانت على القائمة القصيرة لجائزة بوكر للرواية السنوية.

المحرر الأدبي في هيئة الإذاعة البريطانية ويل جومبرتز وصف أدب مونرو بـ"الجاد وهو يتحرك في أعلى مستويات اللعب منذ أن بدأت في الكتابة".

وقال جومبرتز إنها حصلت اليوم على لقب تستحقه تماما. لمساواتها مع كتاب آخرين ظفروا بهذه الجائزة المرموقة. واستبعد أن تكون لجنة نوبل منحت الجائزة لأي سبب سياسي، كما يعتقد مع غيرها من الفائزين.

مؤكدا أن ذلك سيبدو جليا عند عرض إنجازها القصصي في حس تاريخي على امتداد تجربتها.

وعبر عن سعادته أن تفوز هذه المرأة بالجائزة في حياتها، قائلا "إن الأمر سيكون رهيبا عندما تمنح لها بعد رحيلها".

ويعالج سردها القصصي ما يطرأ على روح الإنسان، والمعضلة التي تواجهها الفتيات، فهي تتذكر أن ولعها بالكتابة كان في زمن الفتيات اللواتي يسعدن بارتداء التنانير القصيرة والسير في البلدات الصغيرة والمتباعدة عن بعضها.

عندما صرحت هذا العام بأن كتابها الذي صدر عام 2012 "الحياة العزيزة" سيكون الأخير، وهي لا تحب أن تكتب بعد اليوم دون أن تثير ضجة.

واعترفت آنذاك بأنها لم تحب الكتابة وحدها كقدر لحياتها، لكنها بالتأكيد أعادت تفكيرها بطريقة مختلفة.

ووصفت الكتابة بأنها أشبه بنهاية خطأ ارتكب في الحياة، لكنها نوع من المؤانسة الحساسة للغاية. وقبلها كانت قد كشفت أنها تتلقى العلاج من مرض السرطان، وأنها أجرت عملية جراحية في القلب.

الدب يصعد الجبل

تبلغ أليس مونرو في قصتها "الدب يصعد الجبل" (1999)، والتي تحولت إلى فيلم سينمائي تحت عنوان "بعيداً عنها" (2006)، أوج رقتها الأدبية. ترنو إلى ما يفرضه الزواج من التزامات وما يرافقه من ألم حين ترحل زوجة روحياً وتقع فريسة مرض الزهايمر، بل وتقع - عجوزاً تقهقرت إلى سن طفلة – في حب مريض آخر بالزهايمر، تحت سمع وبصر زوج بالكاد تتذكره.

❑ ما استطاع أن يطوقها بذراعيه. داخَل صوتها وابتسامتها، على ألفتهما، شيء، داخَل طريقة حمَت بها اللاعبون منه – وكذا حمَته من استيائهم – شيء جعل عناقها مستحيلاً.

قال، "لقد أحضرتُ لك زهوراً. جال ببالي أنها ستبهج حجرتك. مضيت إلى غرفتك ولم أجدك." ردت، "لا، إنني هنا." ثم استردت المائدة ناظريها. قال جرانت، "لقد صادقت صديقاً جديداً"، أومأ إلى رجل تجلسَ بجواره. ارتقى بصر الرجل في هذه اللحظة إلى فيونا فالتفتت بسبب ما قاله جرانت أو لأنها استشعرت النظرة المسدَّدة إلى ظهرها.

"إنه أوبري. الغريبة أني أعرفه منذ سنوات طوال. اشتغل في متجر. متجر خردوات كان جدي يبتاع منه. كنت أنا وهو نتلاعب، وما أسعفته شجاعته أن يطلب مني الخروج معه. حتى آخر عطلة أسبوعية فقط لا غير، وقد أخذني إلى مباراة بيسبول. وحين انتهت، جاء جدي ليقودني إلى البيت. كنت أزورهما في الصيف. أزور جدي وجدتي – عاشا في مزرعة." "فيونا. إنني أعرف أين عاش جدك وجدتك. إنه محل إقامتنا السابق."

"حقاً؟" نبست دون أن توليه كل انتباهها لأن لاعب الورق كان يحثها على التطلع، حثاً لا يضمر توسلاً، وإنما هو أمر. كان رجلاً في سن جرانت، أو أكبر قليلاً. سقط شعره الأبيض الكثيف الخشن على جبهته، وبدت بشرته أشبه بالجلدية، ولكن شاحبة ضاربة إلى الاصفرار مثله مثل قفاز قديم متجعد من جلد الجدي. اتسم وجهه الطويل بالجلال والسوداوية، وشابه جمال حصان قوي عجوز ثبطت همته.

"لا بد أن أعود" قالت فيونا والتورد يطبع نقاطاً على وجهها، وجه اكتسب مؤخراً قدراً من البدانة. "يظن أنه لا يستطيع أن يلعب دون أن أجلس هناك. إنها سخافة، لم أعد أفقه اللعبة. لو تركتُك الآن، تَقْدر أن تسلي نفسك؟ لا بد أن كل شيء يبدو غريباً لعينيك إلا أنك سوف تندهش من سرعة اعتيادك إياه. سوف تتعرف إلى الجميع. عدا أن بعضهم يغيبون، كما تَعلم، بين السحب في ملكوتهم."